من الأدب البولندى

إنى أقتل نفسى

بقلم الكاتب البولندى المعاصر : جوليان كوليك

ترجمة : حسين القباني

جوليان كوليك مشهور فى بولندا كصحفى واديب . وقد تخرج فى جامعة كراكا ومتخصصا فى فقه اللغة البولنديه . ثم اشتغل بالصحافة والادب مما بعد الحرب العالمية الثانية وقد ولد فى قرية صغيرة بجوار مدينة سامدر بيرز لاب من صغار الملاك . وقد صدرت له مجموعتان من القصص القصيرة : « معزات فى الشوارع » و « الجروح » .

لسوف ادمر اليوم قنبلة ربتا . سافعل هذه الليلة عندما ابدأ دورتى التعيشية فى معمل الجيش . سابلغ اليوم ذروة القدرة على التضحية . وقد ادركت هذه الحقيقة عندما رفعت الى اغصان الشجر الرقيقة الآسية ، ولست ادرى لماذا ادركت هذه الحقيقة فى لحظة رؤيتى للشجر .

انى اسير فى طريق مرصوف بالحديقة العامة . وانى لاشعر فى عمق سرورة الهواء وان الناس ليمرون بى . انهم لا يحفلون بامرى . انهم لايعرفون انى — هذا الرجل العادى المظهر بمعطف المطر الرمادى والاذنين الكبيرتين والشامة على الخد — قادر على القيام بتضحية ذاتية ضخمة ، ففى هذا المساء سوف ادير المفتاح فى قفل باب الخزانة الحديدية ، وافتحه ، وانتاول منها شيئا يشبه بيضة الاوزة الكبيرة . تلك هى قنبلة ربتا . وان المسافة بين دبوس التفجير ومركز الانفجار لا تزيد على ثلاثة ملليمترات . هذه هى المسافة التى قدرها البروفسور لومبارد لدبوس التفجير عندما وضع القنبلة فى كيسها الجلدى . وان قنبلة ربتا لترقد فى كيسها كالطفل بين لفائف النياب . واليوم سادمر هذا الطفل الفولاذى لانى استطعت اليوم ان ابلغ القدرة على القيام بهذه التضحية العظيمة .. التضحية بالنفس .

ينبغى ان افعل هذا . ينبغى ان احرر البشرية من هذا الكابوس الرهيب من هذه القوة المدمرة المنيفة . لماذا يكون لهذا الدبوس الفولاذى الدقيق القدرة على قتل الناس او احيائهم ؟ عطالما ان هذا الدبوس لا يلمس مركز

الانفجار ، فان الشمس ستستمر في سطوعها ، اما اذا لمس المركز ، فان الليل يحتم ، والناس يموتون ، وتتهاوى الاطيار كالشهب . ان قوة قنبلة ريتا على التدمير تفوق بلايين المرات قوة اكبر القنابل الهيدروجينية على التدمير وهي اذا انفجرت ، فالنتيجة لا تكون الموت فحسب ، لان الموت قوة موازنة للحياة ، يمكن مناقشتها ، ويمكن التنازع معها والمصالحة . اما الموت الناتج من انفجار قنبلة ريتا فهو شيء مجهول . شيء يختلف عن الموت البسيط الذي تعرفه البشرية ، ولهذا يجب البحث عن كلمة اخرى تعبر عنه .

انني اسير في طرقات الحديقة العامة منتظرا الليل . وعندما يأتي الليل سوف ادمر طفل البروفسور لومبارد الفولاذي « . سوف اهبط دبوس التحجير واقذف بالقنبلة في مستنقع والقي بدبوس التحجير في نهر بعيد عن المستنقع بخمسة كيلومترات على الاقل . ولهذا لا تلتقي القنبلة والدبوس مرة اخرى قط . وطالما انهما لا يلتقيان ، فسوف يظل العالم باقيا وسوف احرق الوثائق الخاصة بتصميمات واسرار صناعة القنبلة ، ثم اسحق بقدمي رمادها . ولن يطول العمر بالبروفسور لومبارد لكي يصنع « طفلا فولاذيا » آخر .

سوف ادمر قنبلة ريتا . سافعل هذا من اجل الاشجار والحيوانات والاطيار والناس والحشرات، سافعل هذا من اجل ومن اجل هذا الشاب ذي الشعر الاسود الجالس على مقعد مجاور يبن الشجر في انتظار فتاته . ومن اجلك ايها الجرع المتآكل ومن اجل ما فيك من حشرات . ومن اجلك انت ايتها الدودة السوداء الناخرة في باطن الارض .

انني لاشعر وانا بين كل هؤلاء الناس والاشجار بعزلة ثقيلة هائلة . انا لا استطيع ان اخبر احدا بما اعزم ان افعله ، لان احدى من انهم قد يحاولون منعي من القيام بتدمير القنبلة . ولكن التضحية الكبرى ، مع هذا ، تحتاج الى عزلة كبرى . ولو اني تحدثت عنها لاشركت غيري فيها ، ولاضعفت من شأنها . ولكن هذا الشعور بالعزلة لا يضعف عزيمتي .

ان السماء تنحسر عن الطرف البعيد من الطريق . وهذا يعني ان المساء يوشك ان يحل . واني لاترك الحديقة . ولسوف امضي اليوم التالي المحمل . سآخذ الطريق الذي يبدو ابيض بين المنازل الصغيرة والاراضي المتقاطعة . واني لاسمع من يناديني شخصا يغني وهي يمشي اسمع السنائم الرقيقة وهي تداعب الاغصان الجافة . وبعد لحظة سيتوقف الغناء وحفيف الرياح معا . وسيخيم الصمت على كل شيء .

ووصلت بعد هاة الشريين الصغيرة الى حاجز المراقبة الاول . انهم يسلطون على حرمة من الضوء . لقد تعرفوا علي . ان الحراس يعرفون رئيس مساعدي المعمل تمام المعرفة انه انسان هادىء وادع باذين كبيرتين وشامة على الخد . ومررت من حاجز المراقبة الاول . وان الطريق ليبدو مصقولا كسطح مائدة . وان لمعمل الجيش طرقات جيدة التمهيد تفضي اليه . وعند ضيلة الاشجار الكثيفة الاوراق وصلت الى الحاجز الثاني . وتعرفوا علي بثلاثة حزم

من الانوار الكاشفة تماما كما تعلوا مع طائر استقط في الشجرة وراح يرقرق .

وتاملوني باعمان رغم انهم جميعا يعرفونني ، ورغم انهم يعترفون انني رئيس مساعدي المعمل الذي من حقه ان يعرف كل اسراره . وكان الطريق ، بعد الحاجز الثاني ، يمضي تحت الارض . وها انا اسير الآن في داخل نفق مضاء وان الجدران الجانبية للنفق لواجزه بعدد لا يحصى من الفتحات الصغيرة التي يطل منها الحراس برءوسهم . ومن ثم فان على الانسان ان يسير بهدوء وثبات داخل النفق ، وخير شيء له ان يصفر

وفي فتحة صغيرة باهرة الاضاءة ، ابرزت اوراق تحقيق الشخصية ، ثم دخلت في نفق ضيق . وفتح لي حارس طويل القامة بابا حديديا . وها انا الآن في غرفة الانتظار بالمعمل . انني فيها بمفردي . ولهذا بدات العمل . انني انحني على الدرج السري الذي يحتوي على المفاتيح ، ولا يعرف بأمر هذا الدرج غير البروفسور ، ومدير المعمل ، وانا.

وتناولت المفتاح ، وزرعت من الغرفة الثالثة بالمعمل جهاز الانذار المتصل بالخزانة الحديدية . وفتحت درجا واخذت منه قنبلة زيتا الراقدة في كيسها الجلدي . ان زيتا باردة ملساء وان في مقدوري ان ادمرها هنا .. في المعمل. يمكنني ان احللها تماما ولكن هذا يستغرق وقتا طويلا . ولسوف يحضر مساعدو المعمل الثلاثة المرءوسين لي بعد لحظات . ولهذا احتفظت القنبلة وتصميماتها في جيب كبير بمعطف المطر الذي حملته على ذراعي واتصلت تليفونيا بالبروفسور لومبارد عن طريق رقم سري لا يعرفه احد غيري وغير مدير المعمل . وقلت له انني سوف احضر ادوات هامة من المخزن ويجب الصعود لاحضارها شخصي فورا .

وفي لحظة او اثنتين كنت في طريق العودة . لم يحتجزني احد في حواجز المراقبة ذلك ان التعليمات صدرت الى رئيس الحرس بان الامر يتعلق باحضار ادوات هامة الى المعمل بسرعة .

ومررت من آخر حاجز للمراقبة . ولم يعد هناك مزيد من الانوار الكاشفة وانني من ثم لا انعطف عن الطريق العام وامضي عبر ارض مسطحة رحبة ، في اتجاه حمائل الحور لا شك ان هذا حقل معد للزراعة . وان الليل لمتكاثف ، والجو بارد . وانني لارتدي معطفي . انها معي . القنبلة ، وفي كل خطوة اقطعها اشعر بها تحتك في صلوعي . وبين الحين والآخر ادس يدي الى جيبي لاطمئن على وجودها . انها موجودة .. موجودة ، وانني الامسها بيدي . وانها لباردة ملساء وقد عنى البروفسور لومبارد بصقلها وتلميعها ، ونحت فيها بريق مرآة رهيبة ملتوية . وتحت سيطرتي كنت احس براس دبوس التفجير . وان كل ما على ان افعله هو ازاحة حاجز الأمان ، والضغط على راس الدبوس الصغير ، وعندئذ لا يبقى من العالم الا هباء تذروه الرياح . وايا كان امر هذا الهباء ، فانه سيكون شيئا لا يرى ولا يعرف امره. ولكن هذا لن يحدث ابدا قبل قليل سالقي بقنبلة زيتا الى المستنقع . سالقيها بكل قواي حتى تسقط في وسطه تماما حيث يكون الطين شديد

الكثافة ، فتغوص فيه بسرعة وسهولة اكثر . وسوف التي يدوس التفجير في النهر . فمن ذا يمكن ان يعثر على دنوس لا يريد في السمك من ابرة الا قليلا .

***

وبعدئذ يجب ان اختبىء . يجب ان اعثر على مخبأ امين . لانهم سيبحثون عني بكل تاكيد . ويمكنني القول ان جميع القوات البوليسية ، ولا سيما الادارات العسكرية وقواتها ، والمخابرات السرية ، سوف تستدعى للبحث عني . واستطيع من الآن ان ارى وان اسمع الاوامر التي ستصدر ، والتعليمات التي ستذاع . ما اشد رعبهم وما اقطع همساتهم . كل هذا للعثور علي . ولكن التضحية العظمى التي وطنت نفسي عليها تجعلني لا اعمل بمثل هذه الاشياء . بل ان التضحية العظمى تستلزم هذه الاشياء . ولكن مع هذا فان التضحية العظمى لا تحتم علي ـ بعد تدمير القبيلة ـ ان اضع من نفسي طواعية واختيار بين ايدي الذين صنعوها . اني لا استطيع ان اصنعهم هذه الهيئة لا استطيع ان امنح هؤلاء الاشرار اي احساس بالرضا . ومن ثم يجب علي ـ بعد ان ادمر طفيل البروفسور ـ لومبارد الفولادي ، ان اختبىء بعيدا . وان الناس الذين من اجلهم اقدم هذه التضحية ، سوف يحموني . وسوف يتسلح وتتحول قبل ان يعرفوا شيئا عن معاونتي ، قبل ان يدركوا مدى النفع الذي يعود عليهم منها ، لسوف يوقفون ليفكروا في الامر . سوف يواجهون الشك والريبة .. وعلهم بعد ذلك يستدعون الشجاعة او يخضعون للجبن ، ومن يدري .. فربما اعدوا انفسهم لحمايتي بعد فوات الاوان ولهذا يجب ان ابحث عن مخبأ امين . ولكن اذا اقتفوا آثاري ، واذا سمعت وقع خطواتهم وصلصلة اسلحتهم الحاملة لاسمائهم ، وحفيف ملابسهم الرسمية ، وهرير كلابهم المرعبة المدربة هل اخرج من مخبئي رافعا يدي ؟ هل تضحيتي الذاتية تستلزم ان اقاوم بسالة ، او اتجنب المقاومة بسالة ايضا ، هل اقاوم .. واقاوم بسالة؟ ولكن تضحيتي ترتبط بالمقاومة الحكيمة التي تحتم علي في ظروف معينة ان اختبىء عن العدو ، وان اخدع العدو . ولهذا فلن اخرج من مخبئي لاواجه البوليس وبدلي مرفوعتان . وانما ـ على الاصح ـ سوف اثب ـ في اللحظة التي يرونني فيها ـ الى عنق اقرب رجال البوليس الى . واذا كان لدي مسدس فيجب ان اقتل عددا كبيرا منهم قبل ان اموت . واذا كان لدي مدفع رشاش فيجب ان اقتل عشرات منهم وانا في مخبئي .

ان الارض التي اسير عليها لم تعد الآن ليبة او رخوة ، وانما صلبة ومليئة بعقود العشب .. اذن فقد اقتربت ولا شك من جميلة اشجار الحور . واعتقد اني ارى رقعة سوداء امامي . نعم .. لاشك ان هذه هي جميلة اشجار الحور . واعتقد اني ارى رقعة سوداء امامي . نعم .. لاشك ان هذه هي جميلة اشجار الحور . وان المستنقع يقع وراءها مباشرة . وان هذه العقود العشبية لترداد وترداد كلما تقدمت وان خطواتي لتتعثر وتقصر . وفي بعض الاحيان تتوالق قدمي الى ابعد مما اتوقع وعندئذ اضطر الى التوقف فجأة .

وعندئذ تصطدم قبلة ريتا بصلوعي في عنف . انها تلمح دائما في تذكيري بوجودها ، وانى لأدس يدى بسرعة في جيب معطفى آه . انها هناك . هناك وانها ليست باردة جدا كما كانت بل صارت اكثر دفئا . وان شكلها لم يعد مخيفا جدا ولكنها وحش يهددنا بشيء لايمكن أن نسميه الموت او السكون . . او باية كلمة اخرى من قاموسنا العصرى . انه وحش رهيب ناثم .

وارتدادت الرقعة السوداء سوادا وان حميلة الحور لتمشى قريبة جدا . وان السكون ليشمل كل شيء

وانى لاستطيع الآن ان اسمع همهمة الاشجار الرقيقة . انني الآن في قلب حميلة اشجار الحور . وانى لاسير في ممر ضيق ، وان الاشجار لتحوطنى بعودة . انها تهمس لى بشيء ان قبلة ريتا يجب أن تدمر حتى يمكن لاشجار الحور أن تعيش . وعادت الارض بعد حميلة الحور مرة اخرى . ولكنها لم تكن رحاوة الارض المعدة للزراعة، وانما رحاوة المطاط التي اشعر بالمستنقع . . يمكنني ان اسمعه . ان له ايضا صوته، وان صوت المستنقع ليشبه انفاس الرجل المحتضر . ويمكنني أن استمر في السير ، لأن قدمي لا تغوصان بعد. وانا اعرف أن في مقدوري الاستمرار في السير حتى أصل الى أول ضفة من ضفوف نبات العاب

وهل ثم لم يبق امامي غير خطوات وان الارض لترداد رحاوة بعد كل خطوة . ها أنا قد وصلت الى المكان المناسب . الى أول ضفة في نبات العاب ، واسرعت بوضع يدى في جيب معطفى انالقبلة دافئة . وانى لأضع معدنهـا الدافيء الاملس في كفى مدة طويلة . وانى احيرا اخرج ريتا من جيبي بحذر . انها الان في كفي . وبعد لحظة سيتم كل شيء بعد لحظة سيعجز العالم عن دمار رهيب. ولكن العالم لا يعرف شيئا عن ذلك ولكن العالم هادىء ساكن ، لا يحفل بشيء . فهل يمكن أن يتم عمل عظيم كهذا ، في مثل سكون كبير كهذا ؟ اني أضع ابهام وسبابة يدى اليسرى على صمام الامان . ولكنني أسمع وانا أفعل هذا ، حفيفا مرتفعا . واني لأمسك بصمام الامان وأرفعه . انني مطارد لا . . انها الرياح فقط تجري على اطراف الغاب ولكن . . اذا كانت هناك مطاردة حقا . اذا كان الكلاب تشق طريقها ورائي . . وتبدأ في النباح عند حافة المستنقع اذ فوجئت بظهور اول رجل بوليس امامي . . يمكنني عندئذ أن أهددهم بالقبلة . . يمكنني أن اصيح بهم توقفوا . . ان قبلة ريتا لي بدى وشريط الامان مرفوع . ان دبوس التفجير على مسافة ملليمتر واحد من مركز الانفجار اذا تقدمتم خطوة واحدة ، لسوف اضغط على الدبوس . ولا حدوى من اطلاق النار علي ، لأن سقوط القبلة من يدى سيفجرها بعنف فتنفجر . وسوف تموتون . .

ولكنني لن أكون الشخص الوحيد الذي سيموت عندئذ . ولن يكونوا هم الاشخاص الوحيدين الذين سيموتون . . سوف يموت معنا ملايين الابرياء . ان هذه الافكار لا ينبغي أن تدور برأس رجل قرر أن يضحي بنفسه . ومع ذلك فان رجال البوليس لن يتقدموا خطوة واحدة اذا هددتهم بالقبلة . انهم جبناء . ولن يحدث شيء من ثم للعالم وشجاعتي التي ينبغي أن ترتفع الى مستوى تضحيتي لن تنالها شيء ايضا ،

فانا لا أهتم رجال البوليس لانهم خائنون ، وانما لانهم هم خدمة أولئك الذين يحمون القبلة ... أو أولئك الذين أكرههم . ولهذا ينبغي ان يدخل التهديد والكراهية في برنامج التضحية التي لاشتت بهذه الفكرة واعتبرها رائعة اصيلة . لأني استطيع بهذا ان اسيطر على صناع قنبلة زيتا ومساعديهم واخصمهم لارادتي ، وأفعل بهم ما أشاء. وهذه تضحية حكيمة يمكنني أن آمرهم بالمضي الى هاوية بين التلال حيث اتركهم هناك ليموتوا جوعا.. يمكنني ان ارسل البروفسور لومبارد هناك ، ومدير المعمل أيضا ، شكرا لهذا الخفيف في العاب لقد اثار تغييرا كبيرا في خواطري.

انني لن أدمر قنبلة زيتا . وليتني احضرت معي كيسها الجلدي أيضا عندما فررت بها . لأني في هذه الحالة كنت ساجد شيئا أعطيها فيه لسوف أحتفظ بزيتا وأكرسها لأغراض الخير . وانى لمندهش لاعمال الدلالة المظلمة لما تنطوي عليه القنبلة من خدمات من هذا النوع .

لقد أعمتني التضحية الذاتية عن معرفة أي شيء الا أن هذه القنبلة هي منبع شر خطير . اما الحكمة التي أقررتها الآن مع التضحية ، فانها تجعلني أنظر الى قنبلة زيتا من زوايا مختلفة . فبمساعدة زيتا استطيع أن أحرر العالم من أخطار زيتا . فعن طريق التهديد بها استطيع أن آمر مديري المعامل التي تصنعها ان تدمر كل انتاج للقنابل المماثلة . أستطيع أن أقلم مخالب البروفسور لومبارد وجميع الاخصائيين في صناعة هذا اللون من القنابل ومساعديهم استطيع أن افعل هذا عندما أجعل حساسة ديوس التدمير على مسافة مليمتر من مزمار الانفجار . ان الخوف من انفجارها سيرغمهم على الخضوع والاستسلام لأوامري ان في مقدوري ـ وزيتا معي ـ أن أحطم كل رجل شرير . أستطيع بزيتا أن أفعل الكثير . أن افعل كل شيء تقريبا . ولماذا أقول « تقريبا » . اني في وضع لا يبيح لي فقط ان أقوم باصلاحات عامة ، وانما يمكنني ان أتدخل في حياة كل انسان على وجه الارض وأغير من تفكيره . ويمكنني اذا شئت أن أجعل أغنى التجار يتخلى عن مخازنه . يمكنني اذا شئت أن أجعل المسز اميليا أن تهجر زوجها الذي تحبه وتنحني أمامه ثم تمضي مشردة في العالم . يمكنني اذا شئت أن أجعل ابنة مدير المعمل تتدم نفسها الى عازب . يمكنني أن أصغر أوامري الى عميد العلوم لكي يحلق لحيته ويتسلق احدى أشجار حديقة عامة في وضح النهار . واني لأتخيل المنظر واضحك ـ منظر عميد العلوم وهو يتسلق شجرة الى قمتها ـ يجعله القرد . انني أرى الآن الناس يتوافدون من جميع أنحاء العالم ليحضروا أمامي ويقدمون لي مختلف الاشياء ويتحوني الالقاب أحدهم يعطيني قبلا على الشاطيء ، وآخر يرجوني لأقبل درجة الدكتوراه في جميع العلوم ، وآخر يشرح ـ بكل تواضع ـ أن الملكية هي خير نظم الحكم وانني خير من يصلح لان يكون ملكا لانني رائع المظهر ممتاز في الذكاء . وان بعضهم يقولون لي انني اتمتع بأذنين جميلتين.

انني احاول ان انقض على هذه الافكار . لاني اذا كنت اريد العمل من اجل الخير ، فيجب أن أعد نفسي لتدمير

الشر - وهذا مايدفعني للاحتفاظ بزيتا فلكي أدمر الشر يجب أن أقسم الناس الى فئتين الاشرار والاخيار

اني أستطيع هذا . ولسوف أكون الفيصل الاعلى . ولكن لمـــاذا انحدت صنيعة المستقبل ؟ انني الآن الفيصل الأعلى . فليس هناك من هو اعلى شأنا لقد ما صارت جميلة ؟ وما أعذب ملمسها وألطفه ؟ وما أحلى سطوعها ؟ انني أضم زيتا الى قلبي . اقبلها

ماهذا الذي أقول ؟ . وما هذا الذي افعل ؟ ولكن لماذا أسأل ؟ انني أفعل وانجز مايجب أن يتم . أن هذا كله يتطوى تحت برنامجي الانساني الضخم للتصحية - انني لا أستطيع أن أتردد بل سأكون مضحكا اذا ترددت - انني قيصر .. نابليون .. الاسكندر الاكبر . انني الفيصل الأعلى - انني الـ .. بل أكثر من الـ . انني أهتف . انا اله . ان الاشجار تعرف هـذا الآن أنها تنحني امامي الى الارض لكم المخلوقات الآدمية لاتعرف هذا بعد . ولهذا فاني أعود مسرعا الى المدينة من اقصر طريق .. الى الحكم .. سوف أحكم .. ان جميع البشر أشرار ، ومن ثم يجب أن يدمروا جميعـا .. أنا فقط الرجـل الفاضل أنا فقط الانسان الفاضل لأني امتلك زيتا ؟